ثلاثة حوادث من التاريخ الإسلامى

ساعدت على نمو العربية وانتشارها

للأستاذ عبد الحميد العبادي

عضو مجمع فؤاد الاول للغة العربية

نظرت فى حوادث التاريخ الإسلامى فوجدت أن ثلاثة منها كانت ذات تأثير عميق بعيد المدى فى نمو اللغة العربية وانتشارها العظيم . أول هذه الحوادث تعريب الدواوين على عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ هـ ٨٦ هـ) . الثانى أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) بتدوين الحديث النبوى . الثالث أمر الخليفة المأمون العباسى (١٩٨ — ٢١٨ هـ) بنقل كتب الفلسفة من اليونانية إلى العربية . وسأتكلم على هذه الأحداث الثلاثة واحدا واحدا ، مبينا الباعث عليه ، وكيف تم ، وأثره فى نمو اللغة العربية وانتشارها . ثم أختم كلامى بالمقارنة بين ما حصل منذ أكثر من ألف سنة وما هو حاصل بالفعل بالإضافة إلى نهضة العربية فى عصرنا الحاضر

إن نظام الديوان نظام مستحدث فى الدولة الإسلامية ظهر على عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب عندما توالت الفتوح وتدفقت الأموال من الأقطار المفتوحة ، فاقتضت الحال اتخاذ نظام لتقييد أسماء المقاتلة وقبائلهم ومبالغ أعطياتهم ، فاستشار عمر ذوى الرأى على عادته فى كل أمر حازب وحدث مهم ، فأشاروا عليه بوضع الديوان

و « الديوان » كما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية لفظ إيرانى الأصل له صلة بكلمة « دبير » ومعناها « الكاتب » . وقد أطلق فى أيام الفتوح العربية على السجلات التى كانت تشتمل على حساب أموال الدولة ، ثم أصبح يضاف فى العصر العباسى إلى كل فرع من فروع الإدارة العباسية ، فقالوا ديوان الزمام وديوان التوقيع وهكذا

ولقد كون عمر لجنة لتدوين أسماء الجند وبيان أنسابهم وأعطياتهم على نظام اتفق عليه وفصله الماوردى فى كتاب « الأحكام السلطانية » فكان من ذلك الديوان المعروف بديوان الجيش . وهو أول ديوان وضع فى الدولة الإسلامية وكان يحرر بالعربية من أول أمره . ثم تلاه ديوان آخر هو ديوان المال والجباية ، وكان مقر دواوين الأموال فى عواصم الأقطار المفتوحة . وكانت تسجل فيها أسماء القرى ومساحاتها ومقادير ارتفاعها وتوزيع ذلك على هيئة جزية أو خراج . وكان هذا الديوان يكتب فى كل قطر بلغة أهله أو لغة الدولة التى كانت لها السيادة عليه قبل الفتح الإسلامى

يحول بينهم وبينه ، كما يحول قوام صورة الإنسان الظاهرة بينهم وبين ما فعلوه فى شقيقها وقرينها

***

الحياة إحساس محض ، والحس حر مطلق ، فأيما مذهب أو جماعة أو دولة ، حاولت أن تدمج بالختل حسا فى حس ، وأن تطابق بالخديعة إحساسا فى إحساس ، فلا غاية لها إلا استعباد أحرار الحياة ، وتدمير سر النشأة وتخريب بنيان الله بأخس الأسلحة : بالكذب والمكر والتغرير والختل والخديعة والعبث . إنهم يريدون أن يجعلوا المذهب أو الجماعة أو الدولة ، طاغوتا يعبده المضللون دامين متضرعين « ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون »

أليس هذا بحسبك بعد الذى أفضت فيه . وقد عرضت لك جانبا من خواطر نفس حائرة تتصفحها ، فتفكر وتدبر ، واحذر ما يقول القائل .

فبينما الأمر تزجيه أصاغره ... إذ شمرت لخمة شهباء تستعر

تعمى على من بداويها مكايدها ... عمياء ، ليس لها شمس ولا قمر

محمود محمد شاكر

فكان ديوان العراق وفارس يكتب بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية ، وديوان مصر بالرومية والقبطية . وكان يتولى شئون هذه الدواوين عمال من أهل الأقليم ، فكان عمال ديوان العراق من موالى الفرس ، وعمال ديوان الشام من الروم ، وعمال ديوان مصر من الروم والقبط

وقد ظلت دواوين المال والجباية تكتب فى الأقطار المفتوحة باللغات الأجنبية المذكورة يتولاها عمال من موالى الفرس والروم والقبط حتى كان زمن عبد الملك بن مروان . وكانت العربية قد انتشرت بين الأعاجم وحذقها قوم منهم إلى جانب لغاتهم الأصلية . ثم أن الدولة الأموية قد أصبحت راجحة النفوذ فى الميزان الدولى ؛ هذا إلى عصبيتها الشديدة لكل ماهو عربى ، فلم يكن من الطبيعى أن تظل دواوينها تكتب بغير العربية . واتجهت سياسة عبد الملك إلى تعريب إدارة الدولة ، وبدأ بالعملة فضربها عربية بعد أن كانت رومية وفارسية . قال البلاذرى بأسناده أن عبد الملك أول من ضرب الذهب بعهد عام الجماعة أى سنة ٧٤ . وضرب الحجاج الدراهم آخر سنة ٧٥ ثم أمر بضربها فى جميع النواحى سنة ٧٦ هـ . » ثم اتجهت عزيمة عبد الملك وعامله الحجاج إلى تعريب الدواوين

يروى البلاذرى نقلا عن المدائنى عن أشياخه فى بيان السبب الذى من أجله نقل ديوان العراق فيقول « قالوا لم يزل ديوان خراج السواد وسائر العراق بالفارسية ، فلما ولى الحجاج العراق استكتب زادان فروخ ابن بيرى ، وكان معه صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم يخط بين يديه بالفارسية والعربية ... فوصل زادان فروخ صالحا بالحجاج وخف على قلبه ، فقال له ذات يوم إنك سبى إلى الأمير وأراه قد استخفنى ، ولا آمن أن يقدمنى عليك وأن تسقط . فقال لا تظن ذلك ! هو أحوج إلى منه إليك ؛ لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيرى . فقال والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته . قال فحول منه شطرا حتى أرى ، ففعل ، فقال له تمارض ! فتمارض ، فبعث إليه الحجاج طبيبه ، فلم ير به علة . وبلغ زادان فروخ ذلك فأمره أن يظهر . ثم إن زادان فروخ قتل فى أيام عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث الكندى ... فاستكتب الحجاج صالحا مكانه فأعلمه الذى كان جرى بينه وبين زادان فروخ فى نقل الديوان ، فعزم الحجاج على أن يجعل الديوان بالعربية وقلد ذلك صالحا . فقال له مراد نشاه بن زادان فروخ : كيف تصنع بدهويه وشيشويه ؟ قال ما كتب عشر ونصف عشر ! قال فكيف تصنع بويد ؟ قال : اكتبه «وأيضا» والويد النيف والزيادة تزاد . فقال : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية ! وبذلت له الفرس مائة ألف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك ، فأبى ونقله . فكان محمد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد يقول لله در صالح ! ما أعظم منته على الكتاب ! » . ويقال إن الحجاج أجل صالحا أجلا حتى قلب الديوان »

هذا عن نقل ديوان العراق وفارس . أما ديوان الشام فيروى البلاذرى أيضا سبب نقله فيقول « قالوا ولم يزل ديوان الشام بالرومية حتى ولى عبد الملك بن مروان . فلما كانت سنة ٨١ هـ أمر بنقله ، وذلك أن رجلا من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئا فلم يجد ماء فبال فى الدواة ، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه ، وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان ، فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة ، ففعل ذلك وولاه الأردن . فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله وأتى به عبد الملك ، فدعا بسرجون كاتبه ، فعرض ذلك عليه ، ففعله ، وخرج من عنده كئيبا ، فلقيه قوم من كتاب الروم ، فقال : اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة ! فقد قطعها الله عنكم ! قال وكانت وظيفة الأردن التى قطعها له معونة مائة ألف وثمانين ألف دينار »

أما ديوان مصر فيقول الكندى فى كتاب « القضاة والولاة » فى أمر نقله « وبويع الوليد بن عبد الملك ...

فأقر أخاه عبد الله على صلاة مصر وخراجها وأمره بالدواوين فنسخت بالعربيـة ، وكانت قبل ذلك تـكتب بالقبطية ، وصرف عبـد الله بن أشناس عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص »[1]

ومهما يكن ما ترويه المصادر القديمة من أسباب مباشرة لتعريب الدواوين فالذى لا شك فيه أن عبـد الملك وابنه الوليد وعاملهما الحجاج كانوا شديدى العصبية لـكل ما هو عربى ، وأن الدولة قد اتجهت إلى تعريب إدارتها كما قدمنا ، استكمالا لمظاهرة سيادتها وتوفير لـكرامتها

ولقد ترتب على هذا الحادث التاريخى الهام عدة أمور خطيرة : —

فالعربيـة الفصحى أفادت ألفاظا جديدة كثيرة كما يؤخذ من ترجمة دهوية وشيشوية ووبد ، فهى مثال للحصل ، بالفعل على نطاق واسع . وظهرت فى العربية ألفاظ كثيرة إما معربة أو منقولة عن أصولها الأعجمية المستعملة فى الحساب والمساحة والزراعة والتجارة والصناعة مما لم يكن للعرب عهد به من قبل

ثم إن الأعاجم مسلمين أو غير مسلمين أقبلوا على تعلم العربية ، بعامل المصلحة الذاتية ، وذلك للانتظام فى أعمال الـكتابة والخراج ومما يتصل بهما ، ولسهولة التقاضى فى المنازعات التى كان ينظر فيها قضاة من العرب بطبيعة الحال. وبذلك لم يكد ينصرم القرن الأول الهجرى حتى كانت العربية قد عمت أهل فارس والعراق والشام ومصر وغلبت الفارسية والرومية والقبطية على أمرها فأخذت هذه تتضاءل وتضمحل حتى صارت إلى الزوال أو ما يقرب من الزوال

وبانتشار العربيـة بين الأعاجم واضمحلال اللغات الأجنبية ثم ذهابها ظهرت فى الأقطار المفتوحة لهجات عربية شعبية تبين لنا المصرية منها خاصة مجموعات البردى التى كشفت فى مصر والتى تصاحب تاريخ مصر الإسلامى من أول الفتح العربى إلى القرن السادس

تشتمل هذه الوثائق النفيسة على رسائل صادرة عن ولاة مصر مثل قرة بن شريك وغيره وبعض المثقفين من العرب ومكتوبة بلغة صحيحة فصيحة ، كما تشتمل على عدد عظيم من وثائق المبايعات والمداينات ، وعقود الزواج والتمليك والشئون اليومية ؛ وهذه مكتوبة بلغة شعبية مباينة للفصحى وفيها كثير من خصائص العاميـة المصرية الحاضرة ، من ذلك إبدال الضاد من الظاء فى « إحفض » بدلا من « إحفظ » وإسقاط الهمزة رسما ونطقا إسقاطا يكاد يكون مطردا فيقال « ويضا » بدلا من « وأيضا » و « وحد عشر » بدلا من « أحد عشر » وعدم المبالاة بالإعراب فيقال « اثنين » حيث يجب أن يقال « اثنان » وهلم جرا . وقد نشر جانبا من هذه البرديات المحفوظة بدار الـكتب المصرية الأستاذ المستشرق أودلف جروهمان النمسوى فى ثلاثة أسفار كبار طبعتها دار الـكتب قبل الحرب الأخيرة كما وضع جنابه حديثا كتابا قيما فى هذا الموضوع أسماه « من عالم البرديات العربية » وقد نشرته جمعية الدراسات التاريخية المصرية

وأهم النتائج التى ترتبت على تعريب الدواوين من حيث مستقبل الثقافة الإسلامية أن أصبحت اللغة العربية الأداة الوحيدة للتخاطب لتبادل الآراء والأفكار فى العالم الإسلامى الذى كان يمتد إذ ذاك من حدود الهند والصين إلى سواحل المحيط الأطلسى

* * *

هذا ، عن تعريب الدواوين وما ترتب عليه من الآثار . أما تدوين الحديث النبوى فالمعروف أنهم كانوا طوال القرن الأول يكرهون كتابة الحديث حتى لا يكون إلى جانب القرآن الـكريم كتاب آخر يشغل المسلمين عن تلاوته وتدبر معانيه ؛ بيد أن هذا التحرج لم يمنع نفرا من الصحابة والتابعين أن يكتبوا مجموعات من الأحاديث لأنفسهم خاصة

(١) وإتماما لهذا العرض التاريخى أقول أن سعادة السيد حسن حسنى عبد الوهاب باشا العلامة التونسى وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية أخبرنى أن ديوان المغرب نقل من اللغة اللاتينية إلى العربية فى حوالى الوقت الذى عربت فيه دواوين المشرق وأنهم عثروا فى من يتواخى المغرب على دينار عربى من زمن الأمير موسى بن نصير

لا يقصد النشر والتداول . فلما ظهرت أحاديث لا يعرفها أعلام الصحابة والتابعين قوى الاتجاه إلى تدوين الأحاديث الصحاح . يروى الخطيب البغدادى فى كتاب «تقييد العلم» أن ابن شهاب الزهرى قال لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق تنكرها ولا تعرفها ما كتبت حديثا ، ولا أذنت فى كتابته . فلما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز أمر ابن شهاب الزهرى بجمع السنة وكتابتها . وعن إبراهيم بن سعد قال « أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفترا دفترا فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترا » . ثم استفاض تأليف الكتب فى الحديث بعد ذلك حتى كانت الكتب الستة المشهورة

والذى نخصه بالملاحظة من هذه المظاهرة العظيمة أن الأحاديث سواء كانت مروية باللفظ أو بالمعنى ، هى فى طبقة عالية من البلاغة فأفادت اللغة من تدوينها نموذجا للعبارة البليغة مكن للفصحى بعد المنزلة التى بلغتها بالقرآن الكريم أى تمكين . وإن حرص المسلمين فى كل عصورهم على هذين المصدرين الأقدسين وبالغ عنايتهم بهما أقام الفصحى على أساس راسخ لا يتطرق إليه وهن مادام فى الأرض مسلمون وإسلام

ثم إن الأحاديث المروية عن الرسول العربى تعتبر المصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى ، ومن ثم وضعت كتب فى الحديث مرتبة على أبواب الفقه كموطأ الإمام مالك وصحيح البخارى فكان منها مادة عظيمة غنت لغة الفقه الإسلامى وعلوم الحديث وانبعثت فيها تعبيرات ومصطلحات يعرفها من يطلع على الكتب المؤلفة فى هذين العلمين الجليلين

* * *

ثم انتقل ، إلى الحادث الثالث وهو أمر المأمون بنقل كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية ، فأقول لما فتح العرب بلاد الشام والعراق ومصر وجدوا فى أمهات مدنها مدارس للسريان والفرس والقبط تدرس بها العلوم القديمة وخاصة علوم اليونان وكانت هذه العلوم قد نقلت إلى السريانية فى الشام والعراق وغبة من النساطرة واليعاقبة فى درسها بلغتهم مبالغة منهم فى مقاطعة اللغة اليونانية ، لغة الكنيسة البيزنطية التى انفصلوا عنها من الناحية الدينية . وكان أكثر ما يدرس فى هذه المدارس الفلسفة اليونانية وخاصة المنطق وما وراء الطبيعة ثم الطب والنجوم والكيمياء . وقد نقلوا كذلك كتبا عدة فى الرياضيات وغيرها عن الفارسية والهندية والقبطية والنبطية

واستمرت هذه الحال فى العصر الأموى وأخذ المسلمون يتصلون شيئا فشيئا بهذا الجو العلمى الذى كان يسود الشرق الأدنى بفضل مدارس الإسكندرية وأنطاكية وقيصرية ونصيبين والرها وجنديسابور حتى رووا أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية درس الكيمياء على راهب اسكندرى اسمه ماريانوس وأنه ألف فى الكيمياء ثلاث رسائل . فلما كان زمن العباسيين الأوائل اتخذ إقبال المسلمين على دراسة هذه العلوم ، وكان للخليفة المنصور ولع خاص بالطب والنجوم فترجمت له كتب فى هذين العلمين عن السريانية . وكان للبرامكة أثر كذلك فى تشجيع النقل عن السريانية والفارسية ، فلما جاء المأمون وكان ميالا بطبعه إلى البحث الفلسفى وآراء المعتزلة كالقول بخلق القرآن وغيره من مسائلهم ، فقد سلك مسلكا جديدا بالرة ، إذ أنشأ فى بغداد «بيت الحكمة» للدرس والبحث . والظاهر أنه حذا بيت الحكمة هذا على مثال مدارس السريان التى أشرت إليها ، ثم إنه أحب أن تنقل كتب الفلسفة الإغريقية عن اليونانية رأسا دون وساطة لغة أخرى كالسريانية وغيرها . ويروى ابن النديم فى « الفهرست » السبب الذى بعث المأمون على ذلك وهو أن المأمون رأى فى منامه أرسطوطاليس وسأله بعض الأسئلة ، فلما نهض من نومه طلب ترجمة كتبه ، فكتب إلى ملك الروم يسأله الأذن فى إنفاذ ما يختار من الكتب القديمة المدخرة ببلد الروم ، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم

الحجاج بن مطر وابن البطريق ، وسلم « صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما جاءوه إليه أمرهم بنقله فنقل . ثم أنه جعل يحرض الناس على قراءة تلك الكتب ؛ ويرغبهم فى تعلمها كما يذكر ابن العبرى فى كتابه مختصر تاريخ الدول

واقتدى بالمأمون كثير من رجال الدولة وجماعة من أهل الوجاهة والثروة فى بغداد ، فتقاطر إليها المترجمون من أنحاء جزيرة العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والنبطية واللاتينية وغيرها . وأقبل الناس على الاطلاع والبحث أيما إقبال . وقد ظلت الحال على ذلك حتى أنه لم يكد ينتهى القرن الرابع حتى كان قد تم نقل أهم كتب القدماء إلى العربية

ولقد كان أثر هذا النقل الواسع المدى عظيما بالإضافة إلى اللغة العربية فقد نقل المترجمون مئات الألفاظ الفلسفية والطبية والكيميائية والرياضية وغيرها إلى اللغة العربية ، مترجمين بعضها إلى ما يقابله فى العربية وناقلين بعضها بلفظه مما جعل من علماء اللغة على أن يخصوه بتأليف خاصة مثل كتاب « المعرب والدخيل » للجواليقى . ومهما يكن من شئ فقد كسبت اللغة العربية مادة غزيرة وفيرة مكنت النحاة والمتكلمين والفلاسفة الإسلاميين من خوض مسائل علومهم المختلفة بلغة مواتية وألفاظ دالة على المعانى التى يريدون التعبير عنها

* * *

وبعد فإنا إذا اعتبرنا ما أداه تعريب الدواوين إلى اللغة العربية فى مجال المصطلحات الإدارية المالية ، وما أنتجه تدوين الحديث فى مجال السنة والفقه ، وما أثمره نقل كتب الفلسفة والطب والرياضة والكيمياء فى ميدان العلوم العقلية والطبيعية فإنا نجد أن اللغة العربية قد أصبحت فى القرن الرابع بحرا خضما مما اقتضى وضع معاجم تجمع مادتها وتشرح معانى مفرداتها . وهذا كله بفضل ما فى هذه اللغة نفسها من قوة وحيوية عجيبة ، ثم بفضل السياسة التى انتهجتها الدولة بأزائها على النحو الذى بيناه

وأخيرا أختم كلمتى فأقول : ما أشبه الليلة بالبارحة ، فبعد مضى أكثر من ألف سنة عادت اللغة العربية إلى شبه الحال التى كانت عليها فى أزهى عصور الإسلام . لقد عربت دواويننا بعد أن كانت تكتب بلغات أجنبية بين تركية وفرنسية وانجليزية ، ثم ها هى ذى حركة نقل قوية عن اللغات الأوربية فى مختلف العلوم والفنون والآداب يقوم بجمعنا الموقر على توفير المصطلحات العربية اللازمة لإنجاحها . وكما كانت العربية أداة التفاهم وتبادل الرأى والفكر فى الدولة الإسلامية القديمة ، فانها بسبيل أن تصبح كذلك فى عالم شرق حديث يمتد من أقاصى إندونيسيا إلى مراكش . وهو لعمرى أوسع وأشمل من العالم الإسلامى القديم . ولكن هذا معناه تزايد العبء الملقى على أبناء العروبة وحماة لغة الضاد ، وأخص منهم بالذكر رجال مجمعنا الموقر ، أن الآمال المعقودة عليهم فى جعل العربية تنهض فى المستقبل القريب نهضتها فى الماضى البعيد لآمال قوية لا يعرف اليأس إليها سبيلا . فاذا ما تحققت هذه الآمال وهى متحققة باذن الله فسيكون للعربية شأن أى شأن فى نشر الثقافة العليا فى القارتين الآسيوية والأفريقية والله ولى التوفيق

عبد الحميد العبادى

أسف واعتذار

نعتذر آسفين لمشتركى الرواية من توقفها عن الصدور بسبب الخسارة الفادحة التى منينا بها فى أعدادها الخمسة التى ظهرت ، ونرجو ممن دفعوا بدل الاشتراك سلفا أن يستردوه نقدا أو يشتروا به كتبا من مطبوعات الدار